د. عبد العزيز شهبي *

سياسة الاستعمار الفرنسي تجاه الطرق الصوفية بالجزائر في القرن ١٩ م

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقدمة

عرّف " ابن خلدون " التصوف بقوله : « أصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه » [1] .

وقد حدد أئمة التصوف طرائقهم بمقتضى الآداب الصوفية ، والورد الذي يمثل تعاليم الطريقة وعقيدتها ومذهبها ، وتختلف فيه كل طريقة عن الأخرى من حيث الممارسات والأذكار.

كانت الطرق الصوفية مختلفة وكثيرة العدد في بلاد الجزائر خلال القرن التاسع عشر الميلادي . واشتهرت كل طريقة بشيخها وبزواياها وكثرة المريدين .

---

* أستاذ محاضر - بالمدرسة العليا للأساتذة - في الآداب والعلوم الإنسانية- بوزريعة - الجزائر

وإذا كان بعض الطرق الصوفيـــة هادن الاستعمار الفرنسي منذ البدايـــة ، إلا أن الـــبعض الآخـــر دعا إلى الجهاد في سبيل الله وسبيل الوطن ضد الاحتلال الأجنبي .

وخلال القرن التاسع عشر الميلادي , وجد الجيش الفرنسي في الجزائر مقاومـــة شـــديدة , وكانت تنطلق من الزوايا في كثير من الأحيان . حيث كانت الزاوية تمثل الربـــاط , ومكـــان العبادة والدراسة , ولذلك فهي من أهم الأماكن لاجتماع المسلمين والتقائهم وتوعيتهم في تلك الأثناء .

وحتى يتم القضاء على الثورات الملبية للجهاد في سبيل الله ، والتحكم في المجتمع الجزائري، سعى الفرنسيون إلى التصدي للطرق الصوفية الفاعلة , بغلق زواياهـــا , ومحاربـــة شـــيوخها وأتباعها، واستعملوا في ذلك جميع الوسائل الاستعمارية .

١)-دور الطرق الصوفية في محاربة الاحتلال الفرنسي للجزائر :

في الجزائر, تعددت الطرق الصوفية المختلفة المشارب والاتجاهات ، خلال القرن التاســع عشر الميلادي. وتميزت كل طريقة بشيخ أو خليفة يتبعه المقدمون والإخوان ، واشتهرت بزوايا للعبادة الصوفية والذكر، والصلاة الجامعة , والتعليم , وإيواء الغربـــاء ، واســـتعملت أيـــضاً كرباط للمجاهدين , وكانت الزوايا كثيرة المريدين والأتباع والأوقاف والمال. ومـــن ذلـــك أخذت كل طريقة شهرتها ووزنها ، بعضها هادن الاستعمار منذ البداية ، مثل التجانيـــة الـــتي أسسها أبو العباس أحمد التجاني ، المتوفى عام (١٢٣٠ هـــ / ١٨١٤ م) في فاس ، وهو مـــن بلدة عين ماضي (بنواحي الأغواط) حيث توجد الزاوية الأم [٢] . والبعض الآخـــر دعـــا إلى الجهاد في سبيل الله ، دفاعا عن الإسلام والوطن ، ضد الاحتلال الأجنبي .

وكان أكبر تجمع وطني إسلامي هو مبايعة الحاج عبد القادر بن محي الدين أميرا للمؤمنيـــن في معسكر عام (١٨٣٢ م). وكانت هذه المبايعة تعني بوجوب الطاعة للأمير، الـــذي تعهـــد بإجراء العدل على سنة الله ورسوله ، واحترام الشريعـــة ، والعمل على طـــرد العـــــدو ، ثم أعلن الجهاد في سبيل الله والوطن [٣] .

ومن أهم الثورات [٤] المنسوبة للطرق الصوفية [٥] وزواياها ما يلي :

أ- مقاومة الأمير عبد القادر التي شملت معظم التراب الوطني (١٨٣٢ – ١٨٤٧م) .

٢- انتفاضة الشيخ أحمد بوزيان في واحة الزعاطشة بالزيبان عام (١٨٤٩م) .

وتمثل هذه المقاومات الطريقة القادرية ، المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى في بغداد عام (٥٦١ هـ/ ١١٦٦ م) . وتعتبر القادرية القاعدة للطرق الصوفية التي جاءت بعدها وقد نشرها في الغرب " أبو مدين شعيب الأندلسي " المتوفى في تلمسان عام (٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م) .

٣- مقاومة الحاج موسى الدرقاوي (الأغواطي) في التيطري عام (١٨٣٥م) ، ثم في أولاد نايل

٤- جهاد عبد الرحمن الطوطي ، مقدم الدرقاوية في نواحي بلعباس ، عام (١٨٤٥م).

ظهرت الطريقة الدرقاوية في المغرب الأقصى ، وهي تنتسب إلى الشيخ محمد العربي الدرقاوي المتوفى بشمال فاس ، عام (١٢٣٩ هـ/ ١٨٢٣ م)، وتعود أصولها إلى الشاذلية.

أما الطريقة الشاذلية التي تفرعت عنها عدة طرق صوفية ، فتعود أصولها إلى القادرية . وهي تنتسب إلى أبي الحسن علي الشاذلي ، الذي انتقل من المغرب الأقصى إلى تونس، وتوفي بمصر عام (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م) .

٥- ثورة الشريف محمد بن عبد الله بومعزة بجبال الونشريس وأولاد نايل (١٨٤٥ – ١٨٤٧ م) .

٦- ثورة سي الأزرق بلحاج الطيبي في فليتة عام (١٨٦٤م) .

تنتمي هذه الثورات إلى الطريقة الطيبية التي تستمد أصولها من الشاذلية . وقد تأسست الطيبية في وزان بالمغرب الأقصى ، على يد الشيخ عبد الله الشريف ، المتوفى عام (١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م)، وازدهرت في عهد ابنه الطيب (١١٢٧ – ١١٨١ هـ/ ١٧١٦ – ١٧٦٨ م)

٧- مقاومة الحاج عمر ، ومولاي إبراهيم ، وفاطمة نسومر في جبال جرجرة (١٨٥٠ – ١٨٥٧م) .

٨- ثورة الشيخ الصادق بلحاج في الحنقة وبسكرة (١٨٥٨ – ١٨٦٠م) .

٩- ثورة الشيخ الحداد ، وابنيه : عزيز ومحمد ، في جرجرة والبابور وقسنطينة ، عام (١٨٧١ م).

١٠- ثورة الشيخ محمد يحي الرحماني في واحة العمري بالزيبان ، عام (١٨٧٦ م).

١١- ثورة الشيخ محمد أمزيان بن عبد الرحمن في الأوراس ، عام (١٨٧٩م) .

قامت بهذه الثورات الطريقة الرحمانية ، التي تنتسب إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري الزواوي ، المتوفى عام (١٢٠٨ هـ/ ١٧٩٣ م)، وهو من قبيلة آيت إسماعيل ، تلقى تعاليم الطريقة الخلوتية الشاذلية في المشرق ، ثم نشرها في جرجرة والشرق الجزائري وجنوبه

١٢- انتفاضة الشريف محمد بن عبد الله في الصحراء الشرقية للجزائر (١٨٥٢ - ١٨٦١ م) .

دعم هذه الانتفاضة الطريقة السنوسية ، التي تعود أصولها إلى القادرية ، وهي تنسب إلى الشيخ محمد بن علي السنوسي المستغانمي ، المتوفى بليبيا عام (١٢٧٦ هـ/ ١٨٥٩ م). وكان وراء هذا الدعم الشيخ السنوسي ، ومقدمه في الغرب الجزائري: الحاج أحمد التواتي .

١٣- ثورة أولاد سيدي الشيخ بالغرب الوهراني (١٨٦٤ - ١٨٨١م) .

١٤- ثورة الشيخ بوعمامة بالجنوب الوهراني (١٨٨١ - ١٨٨٣ م) .

تزعم هذه الثورات أصحاب الطريقة الشيخية ، المنسوبة إلى سيدي الشيخ عبد القادر بوسماحة ، المتوفى عام (١٠٢٣ هـ/ ١٦١٥ م) في الأبيض سيدي الشيخ ، وكان مقدما للشاذلية .

٢) متبعة الاستعمار الفرنسي للطرق الصوفية بالجزائر :

أرجع بعض المحللين المقاومة الشديدة التي وجدها الجيش الفرنسي إلى انتماء الناس إلى الطرق الصوفية ، حيث كانت تحمس للجهاد وتدعو للثورة . وحتى يتم القضاء على هذه الطرق الصوفية ، عمل الفرنسيون على معرفتها ، وإدراك أهميتها ودورها وأسرارها وألغازها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن أجل ذلك قام الضباط الفرنسيون بدراسة كل طريقة صوفية ، وتجسسوا على شيخها ومقدميه ، وأحصوا الأتباع والزوايا والأموال ، وجمعوا التقارير الخاصة ، ونشروا المقالات ، وألّفوا الكتب . ومن ذلك وأهمها ما يلي : [٦]

١- كتاب : « الطرق الصوفية عند مسلمي الجزائر » صدر عام (١٨٤٥ م)، ألفه الضابط " دي نوفو De Neveu " والذي كشف فيه أهمية الطرق الصوفية في الثورات . وكان " دي نوفو " يعرف العربية ، ومتزوجا من جزائرية مسلمة وخبيرا بالمجتمع الجزائري ، إذ كان من كبار المسؤولين في الشؤون الأهلية ، منها وظيفة المكتب العربي . وقد استقى معلوماته من وظائفه المختلفة ، ومن زوجته والجزائريين الذين تعامل معهم .

٢- كتاب : « الإخوان » ، صدر عام (١٨٥٩ م)، ألّفه : " شارل بروسلار Ch. Brosselar " ، عن المؤسسات الدينية في تلمسان. وكان" بروسلار " متوليا المكتب العربي في تلمسان ، فاتصل بأهلها ، وعرف حياتهم الاجتماعية ، والتراث الإسلامي الذي كانت تتمتع به هذه المدينة . كما كان يجيد العربية ، فاستعملها للإطلاع على المخطوطات في الزوايا والمساجد والمكتبات الخاصة عند العائلات .

٣- كتاب : « الطرق الإسلامية في الحجاز » ، صدر عام(١٨٨٧م) ، ألفه : " ألفريد لوشاتلييه Alfred le Chatelier " ، وهو ضابط مختص في الشؤون الإسلامية ، كان مديرا للمكتب العربي في مدينة ورقلة ، وعن طريق هذا المكتب عرف نشاط الطرق الصوفية في الجنوب ، وهو أيضا مؤسس « مجلة العالم الإسلامي »، وكان رئيسها ، وقد ربط بين بعض الطرق الصوفية في الحجاز والجزائر .

٤- كتاب : « اكتشاف الصحراء : طوراق الشمال » ، صدر عام (١٨٦٤م) ، ألفه : " هنري دوفيريه H.Deveyrier " ، حين رحل إلى الجنوب حتى وصل غدامس تحت حماية شيوخ التجانية . فكتب عن الطوارق، واكتشاف الصحراء ، وكشف بالخصوص عن أهمية بعض الطرق الصوفية في الجنوب كالتجانية والسنوسية والطيبية والشيخية والقادرية [٧] .

٥- كتاب : « مرابطون واخوان » ، صدر عام (١٨٨٤ م)، وضعه " لـويس ريـن L.Rinn " الذي يعتبر من الخبراء البارزين في الإدارة الأهلية الفرنسية ، وكان مهتما بالحياة الجزائرية الدينية والاجتماعية والسياسية ، فعرف مختلف فئات المجتمع الجزائري بكل تفاصيله . وفي تأليف " رين " لكتابه هذا ، استعمل نفوذه كضابط مسؤول في الإدارة العامة ، فطلب التقارير من مختلف الشيوخ ومقدّمي الطرق الصوفية عن أصولهم وعلاقاتهم وحالاتهم ، ونشاطهم ، وعدد أتباعهم ، وصنفهم وصفتهم وجنسهم ، كما لجأ إلى التقارير الرسمية التي تصل إلى الإدارة المركزية من المكاتب العربية وغيرها ، وأضاف إلى ذلك مراسلات القناصل الفرنسيين في بعض البلدان الإسلامية .

فجاءت دراسة " رين " شاملة لمختلف الطرق الصوفية في الجزائر ، ومن جميع نواحيها وقد تكفل بها الحاكم العام في الجزائر " لويس تيرمان Louis Tirman "(١٨٨٢ - ١٨٩١ م) . وحاليا يوجد كتاب « مرابطون وإخوان » (Marabouts et Khouan) تحت رقم :(٥٢٨٠٧) بالرصيد المغربي، في المكتبة الوطنية بالحامة[٨].

٦- كتاب : « الطرق الدينية الإسلامية » ، صدر في الجزائر عام (١٨٩٧ م) ، وضعه الكاتبان : " أوكتاف ديبون O.Depont ، وايكزافييه كوبولاني Y.Coppolani" كان المؤلفان مسؤولين إداريين ، فهما خبيران بالشؤون الأهلية الجزائرية ، وجاءت دراستهما في وقت كانت فيه فرنسا تحاول ربط مستعمراتها في القارة الإفريقية ببعضها . لذلك كانت دراسة الطرق الصوفية العاملة هنا وهناك مسألة حيوية .

وقد جنّدت حكومة " جول كامبون Jules Cambon"إمكانياتها في البحث والتمويل ، واستعملت لخدمة هذا المشروع التقارير الإدارية ، وتقارير القناصل الفرنسيين في البلاد الإسلامية ومراسلات شيوخ الزوايا . كما قامت الحكومة العامة بطبع هذه الدراسة العامة عن الطرق الصوفية على نفقتها ، والتي تضمنت أيضا آراء وتوصيات كانت توجه السياسة الفرنسية نحو المسلمين .

وكتاب « الطرق الدينية الإسلامية Les confréries religieuses musulmanes»، متوفر حاليا تحت رقم :(٥١١٩٢) بالرصيد المغربي في المكتبة الوطنية بالحامة [٩] .

٣)-سياسة الاستعمار الفرنسي في القضاء على دور الطرق الصوفية بالجزائر :

تصدى الفرنسيون للطرق الصوفية بقوة الجيش والسلاح ، ثم اتخذوا وسائل أخرى تمثلت في تشتيت الصفوف وتمزيق الوحدة داخل الطريقة الصوفية الواحدة ، وجلب ضعاف النفوس ، وشراء الذمم ، بهدف القضاء على الثورات والتحكم في سير المجتمع الجزائري .

لقد رأى الفرنسيون أن استقلال زعماء الطرق الصوفية عن الإدارة ، وعدم قبولهم الوظيفة، يجعلهم خطرين على الاستعمار ، لذلك تقررت مراقبتهم عن كثب ، بالتحكم في مداخيلهم المادية ، ومنع اعطائهم الرخص لزيارة أتباعهم وجمع أموال الزيارات[١٠] .

لكن المؤلف " رين Rin " لاحظ أن الطرق الصوفية التي تحالفت مع فرنسا فقدت حيويتها وانخفض عدد أتباعها . بينما الطرق التي ظلت على عدائها أو حيادها اكتسبت أتباعا وتجددت، لذلك نصح بعدم اتخاذ أسلوب المواجهة والانتقام ضد الطرق العدوة ، كهدم الزوايا واعتقال الزعماء ونفيهم ، لأن ذلك لا يخدمها ، ويضر بالمصلحة الفرنسية ، وقال إن أكثر الطرق عداءً في وقته هي الرحمانية والدرقاوية ، وأن أكثرها ولاءً هي التجانية.

واقترح " رين " أن تتبع بلاده سياسة الحكمة ومنح الأموال لدى هذه الطرق لتصادق معها ، وتستفيد منها ، وتقلّم أظافرها ، ويتجسد ذلك في اعتراف فرنسا بشرعية الرؤساء الذين يمكنهم الانضواء تحت حمايتها ، ومنحتهم مقادير مالية وشرفية ، وبذلك يبقون منشغلين بمصالحهم خارج النشاط السياسي ، وينتهي خطرهم وتأثيرهم على الأهالي .

ورأى " رين " ضرورة تقوية التجانية لتكون حاجزا ضد تسرب الطرق المعادية للفرنسيين في الجنوب على الخصوص ، وتعيين الأئمة من أتباع الطريقة التجانية ، وجعلهم عينا على مقدمي الطرق الأخرى ، ووسيلة إغراء لهؤلاء المقدمين بقبول نفس الوظيف المربح ، إلى أن يصبحوا غيورين على وظيفهم ومكانتهم الاجتماعية . ومن ثمة يتخلى الجميع عن مشايعة الثورات ، وتصبح المصالح هي التي تتحكم في العلاقات[١١] .

وأضاف الكاتبان " ديبون وكوبولاني Depont et Coppolani " الوصايا التالية :

أ- وضع الطرق الصوفية تحت الوصاية الفرنسية ، وجعل شيوخها ومقدميها أئمة ليس لهم رواتب ولا تابعين للسلطة في الظاهر .

ب- وضع اليد على الزوايا القديمة الموجودة ، وإظهار التسامح معها ، وإنشاء زوايا حديثة مجاورة للزوايا القديمة ومنافسة لها ، تكون تحت سلطة فرنسا ، وجعلها تقوم بالعبادات والتعليم والإحسان ، ومن خلالها يمكن مراقبة الزوايا القديمة المجاورة .

ج- عن طريق الطرق الصوفية التي لها علاقات خارجية ، يمكن لفرنسا أن تربط علاقات تجارية وسياسية مع السودان الشرقي والغربي لنشر أفكارها الحضارية .

أما سياسة الحاكم العام في الجزائر " جول كامبون Jules Cambon" نحو الطرق الصوفية منذ توليه عام ١٨٩٢ ، فقامت على الاحتفاظ بحرمة الشيوخ الذين بقوا بعيدين عن الفرنسيين، وتمثلت معالمها فيما يلي :

أ- إعطاء الشيوخ برنوسا أحمرا ، منحهم الكلمة العليا في البلدة ، مع إظهار التسامح نحوهم ، ودعوتهم لتولي الوظيف تحت السلطة الفرنسية .

ب- احترام إرادة الشيخ والإخوان في اختيار المقدمين ، وتعيين الخلفاء عن طريق وراثة البركة .

ج- الموافقة على الإجازات الصادرة من الشيوخ للمقدمين ، والاعتراف بها، وذلك لجعل هؤلاء المقدمين مستقلين في زواياهم ، وواقعين تحت يد فرنسا [١٢] .

وتماشيا مع السياسة الفرنسية تجاه الطرق الصوفية ، فقد تزوج شيخ زاوية عين ماضي " أحمد التجاني " من الفرنسية " أوريلي بيكار " ، ابنة الضابط المتقاعد ، وبنى لها قصر كوردان للحياة الفرنسية ، بقرب عين ماضي ، وبقيت على مسيحيتها من تاريخ الزواج عام (١٨٧١م) إلى وفاتها عام (١٩٣٣م) ، وكانت عين الفرنسيين على الطريقة التجانية .

وبعد وفاة الشيخ " أحمد التجاني " عام (١٨٩٧م) ، اضطر خليفته الشيخ " البشير التجاني " إلى الزواج من "أوريلي Oreilly " أرملة أخيه ، وذلك حتى لا تفقد فرنسا عينها على الطريقة التجانية .

وتزوج من " فيري Feret " الفرنسية ، " حمزة بن بوبكر " ، آغا جبل عمور ، وهو أحد أقطاب أولاد سيدي الشيخ [١٣] . وأيضا تزوج ابن الشيخ البودالي الهبري من امرأة فرنسية[١٤]. وكذلك تزوج الشيخ " محمد الشرقي " ، صاحب زاوية العطاف الشاذلية ، من امرأة فرنسية [١٥] .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٤)-نتائج سياسة الاستعمار الفرنسي في القضاء على دور الطرق الصوفية بالجزائر :

استطاع الفرنسيون أن يقضوا على المحاربين من زعماء الطرق الصوفية ورجالها ، فمنهم من نُفي إلى خارج البلاد كالأمير عبد القادر عام (١٨٤٧م) ، ومنهم من قُتل في ميدان المعركة مثل أحمد بوزيان بالزعاطشة عام (١٨٤٩ م) ، ومنهم من سجن أثناء المقاومة مثل الشريف محمد بومعزة بالونشريس عام (١٨٤٧ م)، والشريف محمد بن عبد الله بورقلة عام (١٨٦١ م)، والشيخ الحداد بقسنطينة عام (١٨٧١ م)، وهكذا فرق الاستعمار شملهم ، واسكت بعضهم بالوظائف ، وزرع بينهم العداوة والبغضاء .

وفي أواخر القرن التاسع عشر (١٩م) ، ضعفت المقاومة ، وفقد الأمل في الخلاص من المستعمر الأجنبي ، ومن ثمة زاد ارتماء المواطن الجزائري في أحضان التصوف وشيوخه ، معتقدا فيهم الخلاص الدنيوي والروحي ، لكن الطرق الصوفية استسلمت للأمر الواقع ، ولم تعد مضادة للاستعمار ، حيث لجأ الفرنسيون أيضا إلى تمزيق وحدتها وتشتيت صفوفها [١٦] .

فلم يأت آخر القرن حتى تفرعت القادرية والشاذلية والدرقاوية ، وغيرها إلى فروع ضعيفة ومتنافسة ، وكان مصير الرحمانية كذلك ، حيث تمزقت إلى فروع كثيرة ، واستقل كل مقدم بزاويته ، لا يعترف أحدهم بالآخر ، وأبرزهم :

١- الشيخ محمد بن أبي القاسم البوجليلي في آقبو (نواحي بجاية) .

٢- الشيخ محمد باش تارزي في قسنطينة .

٣- الشيخ علي بن الحملاوي في وادي العثمانية (نواحي قسنطينة)

٤- الشيخ علي بن عمر في طولقة (نواحي بسكرة) .

٥- الشيخ محمد بن أبي القاسم في الهامل (نواحي بوسعادة) .

٦- الشيخ سالم بن محمد الأعرج في وادي سوف [١٧] .

ولقد اتبع الحاكم العام " جول كامبون " سياسة التقرب من الطرق الصوفية واستمالة رؤسائها ، فعرض عليهم الوظائف والأوسمة ، وأقام لمن مات منهم احتفالات التأبين ، مثل ما فعل عام (١٨٩٧م) ، بالجامع الجديد في مدينة الجزائر ، لـ" أحمد التجاني " ، شيخ زاوية عين ماضي ، وفي بوسعادة لـ" محمد بن أبي القاسم " شيخ زاوية الهامل ، وقد قبل بعضهم وظيفة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الآغا والقائد ، سيما أولاد سيدي الشيخ ، ومنهم من حصل على أوسمة رسمية ، كالآغا الحاج قدور الصحراوي بتيارت ، وتحولوا بذلك إلى جهاز استغلالي في يد السلطة الفرنسية .

وكان هدف " كامبون " هو توظيف نفوذ الطرق الصوفية في خدمة المصالح الفرنسية في الصحراء .

كما سار الحاكمان العامان " شارل جونار Jonnart . Ch " (١٩٠٣ – ١٩١١م) ، و" شارل ليطو Ch.Lutaud" (١٩١١ – ١٩١٨م) على سياسة مشابهة نحو الطرق الصوفية . واستخدمت الإدارة نفوذ هذه الطرق خلال الحرب العالمية الأولى ضد الدعوة إلى الجهاد ، فأعلن رجال الدّين خضوعهم لفرنسا، وتحالفوا معها ، وساهموا في التهدئة العامة ، ودعوا الجزائريين إلى الوقوف بجانب فرنسا ضد ألمانيا وحليفتها تركيا [١٨] .

واستمرت السلطة الفرنسية في توظيف الطرق الصوفية لمعارضة التيارات السياسية والإصلاحية التي ولدت في الجزائر منذ عام (١٩٢٠ م).

٥)–الطريقة القادرية والمقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي في الجزائر " نموذجاً "

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أ) الطريقة القادرية :

تنتسب الطريقة الصوفية القادرية إلى العالم المتصوف الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى في بغداد عام ٥٦١هـ (١١٦٥م) وتعتبر القادرية هي القاعدة لمختلف الطرق الصوفية التي جاءت بعدها أو التي استقلت عنها ، وتوجد الزاوية الأم للقادرية في بغداد [١٩].

وقد انتشرت القادرية في مختلف المدن الجزائرية ، لاسيما خلال العهد العثماني ، وتأسست فروع قادرية في الجزائر وكان أصحاب هذه الفروع يتصلون مباشرة ببغداد لأخذ الإجازة من هناك . كما كانت ترسل الزيارات مع الحجاج إلى الزاوية الأم في بغداد .

وهكذا ظهر مقدموا القادرية في الجزائر ،وتكونت لها زوايا وأضرحة ومساجد وأوقاف كثيرة في مدينة الجزائر وتلمسان وقسنطينة وبجاية وغيرها [٢٠] .

ب) المقاومة على يد الأمير عبد القادر والطريقة القادرية :

إن الاستفسار المطروح في هذا المجال هو: ما هي علاقة القادرية بالمقاومة على يد الأمير عبد القادر ؟

وهنا نجد أنفسنا أمام رأيين : فأحدهما يقول بالعلاقة الوطيدة بين القادرية والمقاومة على يد الأمير عبد القادر.أما الرأي الآخر ، فيقول بخلاف ذلك ، أي لا علاقة بينهما.

– الرأي القائل بعلاقة القادرية بالمقاومة :وهو يستند إلى ما يلي :

نشأ الأمير عبد القادر في جو عائلي يسوده العلم والعمل ، مما ساعده على اكتساب العلم والمعرفة ، وحفظ كتاب الله ، والتشبع بالأخلاق الإسلامية السامية. وفي القيطنة ، مسقط رأسه اندمج في أوساط الطلبة القادمين من مختلف أنحاء البلد للتتلمذ على والده محي الدين ، ولما قرر هذا الأخير التوجه إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، اصطحبه معه ، وقبل العودة إلى أرض الوطن عام (١٨٢٩ م)، توجه مع والده إلى بغداد ، حيث أدى الزيارة إلى قبر سيدي عبد القادر الجيلاني .

ثم إن سمعة الحاج محي الدين ، والد الأمير عبد القادر ، قد لعبت دورا في تجميع المقاومة حول شخصه ، بعد ذلك ، باعتباره زعيما روحيا محترما في المنطقة . لقد كان الحاج محي الدين مقدما للزاوية القادرية آنذاك ، كان رجلا ورعا ، تقيًا ، وعالمًا ، تخرج على يده العديد من المثقفين ، وبالإضافة إلى ذلك فإن للقادرية فروع في مختلف أنحاء الجزائر ، وهي تنظيم ديني يشتمل في صفوفه على عدد كبير من الإخوان المستعدين لإتباع شيخهم في الطريق الذي يختاره ، خاصة إذا كان ذلك الطريق هو الجهاد في سبيل الله ولذلك تصدوا معه لمقاومة الاحتلال .

وقد قاد الأمير عبد القادر بنجاح وقعة خنق النطاح الثانية ، نيابة عن والده ، وهو الزعيم الروحي الذي أقعده المرض .ومن خلال تلك المعركة ، برزت العبقرية العسكرية للأمير[٢١] .

ومن هنا فلا شك أن تأييد الحاج محي الدين لابنه عبد القادر ، كان له أثر في التفاف إخوان الطريقة القادرية من حوله .وحتى يكون الأمير في مركز قوي ، فقد اعتمد في كفاحه على الوازع الديني .

وحتى بعد وفاة الحاج محي الدين ، استمرت القادرية على نشاطها إلى جانب المقاومة ، حيث محمد السعيد (أخو الأمير الأكبر) خلف والده ، وتولى شؤون الزاوية القادرية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبعد هزيمة الأمير عبد القادر ، سافر معه أخوه محمد السعيد وسجن معه ، ثم استقر الأخوان بالمشرق .

– الرأي القائل بعدم ارتباط المقاومة بالقادرية :

يعتبر أن مبايعة الأمير عبد القادر عامي(١٨٣٣/٣٢م) ، والتفاف القبائل والجماهير من حوله ، مهما كانت عقيدتهم الصوفية وجهتهم جعل القضية تخرج عن نطاق الطريقة القادرية إلى النطاق الوطني .

وقد تعاونت الطرق الصوفية في عهد الأمير عبد القادر من رحمانية ، ودرقاوية ، وطيبية ، وشيخية ، ولم يفرق الأتباع بين الصفوف المجاهدين ، فكلما دعا الداعي استجابوا بقطع النظر عن مصدر الصوت .

ولكن دعاية الحرب الفرنسية ، عندئذ ، كانت تبذل قصارى جهدها لتفريق الصفوف حول الأمير عبد القادر ، مدّعية أنه كان يحارب باسم طريقته الصوفية [٢٢] .

وعلى الرغم من انتصارات الأمير عبد القادر على الجيش الفرنسي ، إلا أنه أحسّ بضرورة تكوين جيش نظامي ، متحلي بروح الانضباط . فأمر بالنداء في الأسواق والساحات العمومية يعلن عن إنشاء جيش منظم، يستطيع الانضمام إلى صفوفه كل جزائري قادر ، ويرغب في الدفاع عن أرض الوطن وكانت فكرة تزويد البلاد بقوات مسلحة ، ومدربة على مختلف فنون الحرب ، أحسن وسيلة لتجنيد أكبر عدد ممكن من الجزائريين ، ولو كانوا ينتمون إلى قبائل غير مبايعة [٢٣] .

ج) – المقاومة وتوسيع القادرية :

بعد انتقال زعماء القادرية إلى المشرق ، واستقرارهم هناك ، خلف محمد المرتضى والده الشيخ محمد السعيد، وأصبح شيخ القادرية في بيروت ، وكان يقصده الجزائريون للزيارة ، ولأخذ الإجازة ، وكان يستقبل منهم المال، وكان له في الجزائر أتباع واتصالات [٢٤] .

ويلاحظ في تلك أثناء توسيع القادرية وزيادة انتشارها في مختلف أنحاء القطر الجزائري فهل يرجع ذلك إلى التسلط الاستعماري ، وفشل المقاومة التي قادها الأمير عبد القادر ، وبالتالي التجأ الجزائريون إلى التصوف ؟ أو انظموا إلى قيادات صغيرة متمثلة في مقدمي الزوايا لمواصلة

المقاومة على يدهم ؟ أم لعلاقة الطريقة ، وأسرة الأمير عبد القادر في المشرق بالدولة العثمانية ، ومن ثَمّ كان التوافق بين القادرية وحركة الجامعة الإسلامية ؟ أم كل ذلك وغيره معًا ؟

وفي هذا المجال اشتهر سيدي محمد بن عودة ، في نواحي زمورة (نواحي غليزان) والشيخ بوتليليس بشعبة وادي اللحم (نواحي وهران) وسي الأحول عبد القادر في زاوية شلافة قرب هليل (بين مستغانم وغليزان) . وانتشرت القادرية ناحية تيهرت والجنوب الغربي ومن زعمائها هناك بلعربي عبد القادر بن قدور .

وفي شرق الجزائر ، اشتهر ابن النحال في زاوية الفجوج بنواحي قالمة ، كما اشتهرت زاوية بلعباس في منعة بالأوراس ، وزاوية تبسة .

وفي الجنوب ، ظهرت زاوية عميش التي أسسها الشيخ الهاشمي بن ابراهيم ونشط في تجنيد الأتباع من أهل سوف الذين يمارسون التجارة الصحراوية ، ونشر القادرية إلى أقصى الجنوب وفي ناحية ورقلة أسس أخوة محمد الطيب زاوية الرويسات ، وكان له أتباع في الأغواط وغرداية وبين الشعانبة .

هذا بالاضافة إلى زاوية قمار ، وزاوية صحن الشعانبة بوادي سوف وغيرها . وجميعها زوايا قادرية ، وقد وصل تأثيرها إلى عين صالح وتوات وتيديكلت . وكان لها أتباع بين الطوارق ، وعلى رأسهم الشيخ عابدين وقد كان للقادرية دور بارز في مقاومة الغزو الفرنسي للصحراء ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر [٢٥]

د) مصير القادرة :

يذكر الجنرال "لاروك (Laroque)" المسؤول العسكري على إقليم قسنطينة ، بما فيه الصحراء الشرقية ، أن للقادرية عددًا كبيرًا من الأتباع ، وينصح فرنسا بالاستفادة من نفوذهم .

وتدخل الضابط "ديورتر (Deporter)" الذي عمل في صحراء الجزائر وتونس ،سيما في بسكرة ووادي سوف وغرداية وتوزر وقابس وقبلي ، واستعمل القادرية لحساب فرنسا .

وهكذا ، منذ أواخر القرن التاسع عشر، أصبحت القادرية تحت رحمة المخابرات الفرنسية ، والضغط المتعدد الجوانب ، لكي تعمل وفق إرادة المحتل ، كما وُظفت في عدد من المناسبات ،

لاسيما عند حاجة الفرنسيين إلى نفوذ الطرق الصوفية في الصحراء ، حين خططوا لاكتشافها ، واحتلالها ، وربطها بمستعمراتهم الإفريقية [٢٦] .

ومن الأمثلة على ذلك فإن الشيخ محمد الطيب ، مقدّم القادرية في ورقلة ، قد اعتمد عليه الحاكم العام " جول كامبون (J.Cambon)" عام ١٨٩٥ لتمهيد تيديكلت للتأثير الفرنسي ، ورافق الشيخ محمد الطيب بنفسه بعثة المستكشف الفرنسي" فلومانـد (Flumand)" إلى تيديكلت ، عام (١٨٩٩م) ، وأخذ معه عشرين شخصًا مسلحين لحماية القافلة [٢٧] .

خاتمة

مهما قيل عن الطرق الصوفية وتخاذلها أمام الاستعمار ومهادنتها له , إلا أن بعضها , إن لم يكن الكثير منها, دعا إلى الجهاد في سبيل الله والوطن ضد الاحتلال الأجنبي في الجزائر خلال القرن التاسع عشر للميلاد. وسخر شيوخ تلك الطرق الصوفية أنفسهم , وما يتمتعون من أتباع , وتملكه زواياهم من أموال , في محاربة العدو المحتل , وعدم الخضوع له .

ولو لا المقاومة الشديدة التي وجدها الجيش الفرنسي من أتباع الطرق الصوفية ، ودعوة شيوخها للجهاد ، لما عمل الضباط الفرنسيون على معرفة تلك الطرق الثائرة , ودراسة أهميتها ودورها ، ثم التصدي لها بكل الوسائل, ومحاربتها بالسلاح .

فأخضع المحتلون الفرنسيون شيوخ الطرق الصوفية ، وعطلوا الزوايا , الأتباع واستولوا على الأموال والأوقاف , ودجنوا الأتباع , وتشتتوا الصفوف ، وقضوا على المحاربين بالقتل والسجن والنفي ، بهدف القضاء على الثورات ، والتحكم في المجتمع الجزائري .

الهوامش

١- عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر ، ج١ ، ط٢ ، دار الكتـــاب اللبناني ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٨٦٣ .

٢- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج١ ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٨١ ، ص ٥١٨ .

٣- محمد بن عبد القادر الجزائري : تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر ، ج١ ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٩٦ .

- شارل هنري تشرشل : حياة الأمير عبد القادر ، (ترجمة أبو القاسم ســـعد الله) ، ط٢ ، الجزائـــر ١٩٨٢ ، ص ٦٩

٤- يحي بوعزيز : ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ج١ ، ط٢ ، المتحـــف الوطني للمجاهد ، الجزائر ١٩٩٦ ، ص ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

٥- سعد الله : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٥١٤ / ٥٢٢ - ٥٢٣ .

- سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج٤ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٨ ، ص ص ٤٢ - ٦٤ / ٦٧ - ١٠٣/ ١٠٤ - ١١٢ / ١١٣ - ٢٤٥ / ٢٥٢ .

- عمار هلال : الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء ، المؤســـسة الوطنيـــة للفنون المطبعية، الجزائر ١٩٨٨ ، ص ص ١١٠ - ١٠٥ / ١٠٩ .

٦- سعد الله : المرجع السابق ، ج٤ ص ٢٩ - ٣٠- ٣٠١- ٣٠٢- ٣٠٣.

٧- Duveyrier (Henri) : Exploration du Sahara : les Touareg du Nord , Paris , 1864 .

٨- Rinn (Louis) : Marabouts et Khouan , (Adolphe Jourdan) , Alger , 1884 .

٩- Depont (O) et Coppolani (Y) : Les confréries religieuses musulmanes , (Adolphe Jourdan) , Alger , 1897 .

١٠- سعد الله : المرجع السابق ، ج٤ ، ص ص ٣١- ٣٠٦- ٣٠٧- ٣١٠ .

١١- Rinn : op . cit , pp 19- 108- 114- 516 .

١٢- Depont et Coppolani : op . cit , pp int . 283 .

١٣- Garrot (H) : « le mouvement islamique » , Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nort , 1906 , p.174 .

١٤- محمد الهاشمي بن بكار : كتاب مجموع النسب ، الجزائر ج٤ ، ص ص ٣١٤- ٣١٥- ٣١٦-٣١٢ .

١٥- سعد الله ، نفسه ، ص ١٩٦١ ، ص ١٦٢ .

١٦- سعد الله ، المرجع السابق ، ص ٣٦- ٣١- ٣٢ .

١٧- Depont et Coppolani : op . cit , p 247.

١٨- سعد الله : المرجع السابق ، ج٤ ، ص ص ٣١٠- ٣٢٤- ٣٢٨ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٩- لويس ماسينيون : دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد ١٥، ص ١٧٥- ١٨٠

- عمار هلال : المرجع السابق ،ص ١٠٩ .

- RINN (L) : op . cit , pp. 179 - 180

٢٠- سعد الله : المرجع السابق ، ج٤ ، ص٤٢-٤٣

٢١- محمد العربي الزبيري : الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر ، الجزائر ١٩٨٢، ص١٥ ..٢٢

- يحي بوعزيز : المرجع السابق ، ص٣٥-٣٦

GARROT (H) ; op . cit .P.162

سعد الله : المرجع نفسه ،ص٤٤

٢٢- محمد بن عبد القادر الجزائري : المرجع السابق ،ص٢١٦

٢٣- محمد الجزائري ، المرجع نفسه .

٢٤- سعد الله : المرجع نفسه ص ٤٥ ...٤٨

DEPONT (O) et COPPOLANI (X) : op . cit .P.367

٢٥- سعد الله : المرجع نفسه ص ٤٩-٥٠

- DEPONT et COPPOLANI ; ibid .PP.274 -288

- DEPORTER ; La question de touat au sahara algérien .Alger 1891

27 – B.S.G.A.A .N . anneé 1899/1900 . pp5....12

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com